

كيف ينهض العرب: سؤال لم يتخطاه الفكر العربي

الخطاب القومي في عصر النهضة العربية يخفي داخله بذرة فشله



الفكر العربي لم يسهم في بناء واقع أفضل (لوحة للفنان ضياء العزاوي)

بان رسالته مجرد جمع وتعريب أكثر من كونها وضعاً وتصنيفاً، لاستباق أي نقد حقيقي أو لإبراء ذمته من خطر الملاحقة السياسية والأمنية، أو النقد المعرفي المتوقع لأفكاره. فاحتسب كعادة المفكرين النهضويين العرب خلف شخصية فكرية كبيرة لإبراء ذمته ومسؤوليته كونه مجرد ناقل أفكار لا أكثر ولا أقل.

فاخوري بالسؤال النهضوي: كيف ينهض العرب؟
وبعض النظر عن الهوية الملتبسة للنص بين فاخوري وغوستاف لوبون، فإن اللغة والمصطلحات الوضعية الراجحة في الكتاب (الرسالة) تعكس، مناخ العصر الأوروبي المشبع بالوضعية، أي أنها لغة لوبون الخاصة التي يتقنها فاخوري دون إدراك أبعادها التاريخية، وما يصبو إليه من الغاية الكمالية هو ما يريده لوبون من تحويل القومية إلى ديانة تذكر برغبة أوغست كونت بنحو العلم إلى ديانة وضعية.

أزمة الخطاب النهضوي عند المفكرين عازوري وفاخوري أن مرجعياتهما مضادة للنهوض العربي بالمطلق بينما تدعي العكس

وفي وصفه لطرائق النهضة والتغيير يشير فاخوري إلى التدرج والوسائل السلمية والإبتعاد عن الطفرة والتغيير المفاجئ، والتوفيق بين المتناقضات، والرهان على المبدأ الفكري وأخلاق الأمة، وتطبيق تلك الأفكار مسلمات الاتجاه الإصلاحى الإسلامى الذى يعتبر الإسلام ثورة فكرية على العصر الجاهلى. وخلص الباحث زهير توفيق في محاضرته إلى أن أزمة خطاب فاخوري، في كتابه "كيف ينهض العرب"، لا تكمن بالكيفيات والعدة اللازمة للتغيير، بل في مرجعياته المضادة للنهضة بالمطلق والتي عمل الفكر النهضوي المعاصر على إخفائها أكثر مما فعل هو نفسه.

البطيريركية اليونانية المضطهدة للارتودوكس العرب وبقية الطوائف المسيحية التي تشكل أساس رصيد فرنسا من محبة الشرقيين، لكن محبته للشرق تنقلب خشية على الكتلثة والنفوذ المسيحي الفرنسي فيه، فيرجو فرنسا وليح عليها الاستعجال باحتلال الشرق العربي لقطع الطريق على البروتستانت.

مشروع عمر فاخوري

في قراءته لكتاب عمر فاخوري "كيف ينهض العرب" يستنتج الباحث توفيق أنه يمثل نموذجاً مثالياً للمشاريع النهضوية السورية القابلة للتفكك والتصفية، بالرغم من تماسكها واتساقها الظاهري مع ذاتها، ويرتبط تفكيكها بتفكيك القراءات المعاصرة التي طبقت برؤيتها رؤية الكتاب والمؤلف، وإن اختلفت في المنهج بحكم التاريخ والتطور المنهجي.

ويرى توفيق أن مادة "كيف ينهض العرب" لا ترقى إلى مستوى الكتاب أو المؤلف الأصيل الفاعل والمؤثر في عصر النهضة وفكرها، كما توحى القراءات المعاصرة للباحثين المعاصرين السابقين وغيرهم الذين احتفوا وفاخوري، بل هو نص لا يتجاوز الأربعين صفحة، وقد سماه فاخوري نفسه بالرسالة (نشرها سنة 1913 في بيروت)، لكن السلطة العثمانية تصدت للكتاب، ولاحتقت مؤلفه الفتى عمر فاخوري البالغ ثمانية عشر عاماً، وهذا ما أغفله الباحثون المعاصرون، إلا بعضهم، للتأكيد على نباهة الفتى ونضوجه القومي المبكر.

أما متن الكتاب فيتحدث عن نفسه، فهو بالأساس نصوص منقولة ومعربة عن الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون، إضافة إلى بعض الفقرات المعربة من ديمولان، ومفكر الحركة الصهيونية ماكس نورود. ويعترف المؤلف

لتلك الجمعية الخيرية، وفي معرض تعداد مآثر فرنسا في الجزائر، يقول عازوري إنها "غزت الجزائر لا من أجل إقامة مستعمرة إنتاجية لها فيها فحسب، بل وفوق ذلك من أجل تحرير المتوسط من القرصنة البربرية التي كانت تشله وتهدد التجارة الدولية.. إن الخدمات التي لا تحصى والتي أدتها على مر الأزمان لقضية الحضارة تعطيلها الحق في أن تتمتع بمحبة كل الشرقيين وجميلهم دون تمييز في العرق والدين".

أما تونس، التي انتكبت بالاستعمار في الفترة نفسها التي انتكبت بها مصر، فليس لها أثر أو حظ لأكثرها في خطاب عازوري، والسبب عدم الاعتراف بعروبة تلك البلدان (مصر وشمال أفريقيا)، وإخراجها من المملكة العربية التي يحلم بإقامتها في آسيا.

ويتطابق عازوري، كما ذهب توفيق، مع مفكري الاستعمار بضرورة تصدير الأزمة الداخلية إلى الخارج بدلاً من حلها حلاً حقيقياً في الداخل، إما بشن حرب، أو باحتلال أرض، وكلاهما يشيطان الآخر لتسويغ التعسف، فيؤخذ المشاعر القومية، ويضعف التوترات الاجتماعية، إما بحرب على الدولة العثمانية التي انسلاخ عنها وتمنى سقوطها، أو باحتلال واستعمار أطراف وتمنى تعميمه من النموذج الفرنسي بالجزائر والإنجليز في مصر، بل حول أوهامه بمنهجه الرغائبي إلى حقائق، فدل على مقولته باستجداء أهل فلسطين والشام للإنجليز بضرورة احتلال بلادهم أسوة بمصر!

ومارس عازوري تحت ضغط الأحداث، الرغبات المكبوتة في لا وعيه الديني، فانقلب من قومي علماني إلى مسيحي كاثوليكي، يدافع عن فرنسا الكاثوليكية، وعن دورها وسياساتها الدينية في حماية الإرساليات المسيحية في الشرق، ويحلل أوضاع الكنيسة

لقد تصدى الكثير من المفكرين العرب مطلع القرن العشرين لبناء مشروع حضاري عربي، يلحق العرب إلى ركب الأمم المتقدمة، فأعاد هؤلاء صياغة الكثير من المعطيات الثقافية والدينية والعلمية والفلسفية والتاريخية وغيرها في سبيل هذا المشروع النهضوي، لكنه فشل رغم كل الجهود المبذولة، وكان بذرة نكوصه كامنة في عمقه.

عواد علي
كاتب عراقي

ضمن نشاطات ملتقى الثلاثاء الذي يديره استاذ الفلسفة الدكتور أحمد ماضي في عمان، القى الباحث في مركز الدراسات المستقبلية بجامعة فيلادلفيا، ورئيس جمعية النقاد الأردنيين الدكتور زهير توفيق مؤخرًا محاضرة بعنوان "الخطاب القومي في عصر النهضة العربية"، تناول فيها بالنقد والتفكيك مشروعين اثنين من رواد النهضة اللبنايين: الليبرالي العلماني نجيب عازوري، والقومي اليساري عمر فاخوري. استهل الباحث محاضرته بقوله "إن الخطاب القومي الليبرالي يمثل نموذجًا للخطاب النهضوي المتناقض الذي يفترض إلى الكفاءة المعرفية، التي تؤهله ليكون نموذجًا إرشادياً للتفكير بالنهضة في القرن الحادي والعشرين، وما ينطبق على هذا الخطاب ينطبق على الخطابات كلها: السلفي، والليبرالي، والماركسي.

الوقوف مع الاستعمار

أكد الباحث توفيق أن مؤرخي الفكر العربي الحديث والحركة القومية بالغوا في تقدير دور نجيب عازوري التحرري في النهضة العربية، وخطابها القومي العلماني مطلع القرن العشرين، وحققت الأمر أن ما تردد من أحكام إيجابية بحق عازوري ومواقفه ونشاطه القومي نابع بالأساس من النقل والتناص المتبادلين بين الباحثين.

وفي رأي الباحث فإن خطاب عازوري، بتناقضاته وتجاوزاته المعرفية والتاريخية، يمثل صورة نموذجية للخطاب النهضوي المتناقض القابل للتصنيف والتفكيك من تلقاء ذاته، ولا يُرهن عليه لا في الفكر القومي ولا في بناء مشروع نهضوي أو حضاري عربي في المستقبل، فلم يكن على استعداد في مطلع القرن العشرين، وقد اتضحت الأطماع الاستعمارية لدول أوروبا الغربية والشرقية أن يغير نهجه ورؤيته السياسية.

وظل عازوري على موقفه الواثق ثقة مطلقاً بالإمبرياليات الغربية، وخاصة فرنسا على نصرة العرب وتحقيق أحلامهم؛ متصوراً أو متوهماً أن فرنسا وغيرها من الدول الغربية جميعات خيرية هدفها التبشير بالقيم الحضارية ومساعدة المحتاجين، ولا يعير، أو لا يريد أن يعير في خطابه أدنى اعتبار لأهمية وأولوية المصالح في العلاقات الدولية على القيم والمثل المجردة.

ويرى المفكر أن فرنسا كما يقول في كتابه الأهم، والمعتمد في قراءات الفكر العربي المعاصر "بقظة الأمة العربية" هي رسول الفكر الحر ومملكة الحرية المطلقة، والأمة الفرنسية بجوهرها هي أمة الفرنسية، وهي الدولة التي تتفوق على الدول الأوروبية بتقديم المساعدة الأسخنة والأكثر عافية للمظلومين والتعساء، وهي الدولة المتفانية أبداً في نشر المسيحية والديمقراطية، علماً أن فرنسا في عهده كانت جمهورية علمانية فصلت الدين عن الدولة.

ولم يكن موقف عازوري المثالي المفارق للواقع دلالة جهل أو قصر نظر، حسب رأي توفيق، بل كان تواطؤاً وتماهيًا مع المشروع الاستعماري الغربي، والدليل على ذلك إدانتته للمقاومة والمعارضة الوطنية في مصر والجزائر. وأكثر من ذلك فهو يلوم ويتأسف لعدم مشاركة فرنسا في احتلال مصر مع بريطانيا، وكان السياسة الدولية الكولونيالية مجرد رغبة أو نزوة عابرة

رحيل مريد البرغوثي الشاعر الفلسطيني المتيم برام الله

بترجمة لأهداف سويف، ومقدمة لإدوارد سعيد في ثلاث طبعات عن دار النشر بالجامعة الأميركية في القاهرة ثم عن دار راندوم هاوس في نيويورك ثم عن دار بلومزبري في لندن. ثم ترجم إلى لغات عديدة. كما حصل الأديب الراحل على جائزة فلسطين في الشعر عام 2000. يهتم البرغوثي في قصائده بالمشترك الإنساني، ما يجعل شعره بالغ التأثير في قارئه أياً كانت جنسيته، وهو يكتب بلغة حسية مادية ملموسة، وتخلو قصيدته من التهويمات والهذيان وهذا ما ساهم في توسيع دائرة قرائه في العالم.

وللراحل 12 ديواناً شعرياً، ومن أبرز رواياته، "رايت رام الله" حيث لم يتمكن من العودة إلى مدينته رام الله إلا بعد مغادرتها بثلاثين عاماً من التنقل بين المنافي العربية والأوروبية، وهي التجربة التي صاغها في سيرته الروائية تلك.

أول دواوين البرغوثي كان "الطوفان وإعادة التكوين" (1972) وأخرها "استيقظ كي ترى الحلم" (2018)، وبينهما عشر دواوين، منها "فلسطيني في الشمس" (1974) و"طال الشتات" (1987)، و"زهر الرمان" (2000). وقال وزير الثقافة الفلسطيني عاطف أبو سيف، في بيان إنه "برحيل الشاعر والكاتب مريد البرغوثي تخسر الثقافة الفلسطينية والعربية علماً من أعلامها، ورمزاً من رموز الإبداع والفحاح الثقافي الوطني الفلسطيني".

وأضاف أبو سيف أن الراحل من "المبدعين الذين كرسوا كتاباتهم وإبداعاتهم دفاعاً عن القضية الفلسطينية وعن حكاية ونضال شعبنا وعن القدس عاصمة الوجود الفلسطيني".

وأكد أن "أفعاله الشعرية والنثرية ستخلد كحكاية الكفاح والنضال الوطني الفلسطيني والفكر الإنساني". والراحل هو زوج الروائية المصرية رضوى عاشور، التي رحلت نهاية عام 2014، وهي أديبة شهيرة وترجمت أعمالها إلى عدة لغات، منها الإنجليزية والإيطالية والإسبانية لاسيما "ثلاثية غرناطة" وتضم 3 روايات هي "غرناطة" 1994 و"مريم والرحيل" 1995، و"أطياف" 1999.

ووفق تغريدات بمنصات التواصل، عرف عن مريد البرغوثي ورضوى عاشور، حبهما الشديد، وفي يوم الحب الذي يحتفل به العالم كل عام في 14 فبراير، تصادف وفاة البرغوثي ليكتب الفصل الأخير من حياته ويلحق بحبيبته بعد نحو 6 أعوام من الفراق.

عمان - توفي الشاعر والأديب الفلسطيني مريد البرغوثي، مساء الأحد، في العاصمة الأردنية عمان، عن عمر ناهز 77 عاماً، بعيداً عن مسقط رأسه رام الله في فلسطين، المدينة التي رافقته طيلة حياته وكانت نواة أحد أبرز كتبه. وعبر صفحته الموثقة بفيسبوك، نعى الشاعر تميم البرغوثي والده مريد، بنشر صورة سوداء مع كتابة اسمه، في إشارة لوفاته والحداد عليه.

مريد البرغوثي يهتم في قصائده بالمشترك الإنساني، ما يجعل شعره بالغ التأثير في قارئه أياً كانت جنسيته

وقد نعى الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين البرغوثي، بعد مسيرة إبداعية مديدة، وكفاح وطني عريض، معتبراً في بيان له رحيل الشاعر البرغوثي خسارة كبيرة، ومؤلمة للشهد الثقافي العربي عامة، ولثقافة الوطنية خاصة، إذ يعتبر من القامات المؤثرة التي سيصعب تعويضها.

ولد مريد البرغوثي في 8 يوليو 1944 بقرية دير غسانة شمالي رام الله، وسط الضفة الغربية المحتلة. وتلقى تعليمه في مدرسة رام الله الثانوية، وسافر إلى مصر عام 1963 حيث التحق بجامعة القاهرة وتخرج في قسم اللغة الإنجليزية وأدبها العام 1967.

في أواخر الستينات تعرّف على الرسام الفلسطيني الراحل ناجي العلي واستمرت صداقتهما العميقة بعد ذلك حتى اغتيال العلي في لندن عام 1987، وقد كتب عن شجاعة ناجي وعن استشهاده بإسهاب في كتابه "رايت رام الله" وأعاد شعراً بعد زيارة قبره قرب لندن بقصيدة أخذ عنوانها من إحدى رسومات ناجي "أكله الذئب".

وفي بيروت تعرف على غسان كنفاني الذي اغتاله الموساد الإسرائيلي في عام 1972. وكان لكل هذه اللقاءات الأثر الكبير في أدبه وشعره بشكل خاص.

وقد ترجمت أشعاره إلى عدة لغات وحاز كتابه النثري "رايت رام الله" - دار الهلال (1997) على جائزة نجيب محفوظ للأداب فور ظهوره وصدر حتى الآن في 6 طبعات عربية. وصدر باللغة الإنجليزية



شاعر يتجول بمدينته في المنافي